

دور علماء الشيعة في تأسيس الحركة الفكرية والتجديدية "دراسة أنموذجية وصفية"

م.د فارس فضيل عطوي

جامعة الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) / قسم علوم القرآن والتربية الإسلامية

المقدمة:

يتمثل الدور الأساسي للمعصوم (عليه السلام) في هداية بني البشر وتهذيبهم وتقويمهم والمحافظة عليهم وإرشادهم لما فيه الخير والصالح من خلال إدارتهم الحكيمة للمجتمع الإنساني ، وبالفعل ، تم ذلك وعلى أتم وجه فوجود المعصوم (عليه السلام) بين ظهراني الأمة الإسلامية يمثل صمام الأمان لها والقلب النابض في جسدها .

فكان وجود المعصوم (عليه السلام) له الأثر الأكبر في حياة الأمة الإسلامية وقيادتها حتى في زمن الغيبة الصغرى للإمام الثاني عشر (عليه السلام) عن طريق سفرائه الأربعة ، لكن بعد وقوع الغيبة الكبرى للإمام المعصوم (عليه السلام) بدأت مرحلة جديدة في تاريخ مذهب أهل البيت (عليهم السلام) تمثلت بقيام فقهاء الشيعة الإمامية في التصدي لمختلف الجوانب المرتبطة بالأمة الإسلامية في سبيل المحافظة على حضارتها وارثها العظيم وديموتها واستمرارها للأجيال القادمة .

وبالفعل استطاعت نخب الفقهاء للأمة الإسلامية وبالخصوص فقهاء الإمامية في دفع عجلة الحضارة ومواكبة التغيرات الموضوعية التي تستتبع تغيرات حكمية كثيرة فضلاً عن التطورات العلمية ، وسد الفراغ والمستجدات في مجالات مختلفة سواء أكانت على مستوى الفكر والتجديد المنهجي أم على المستوى الدرايتي والفقهية أم على مستوى الجانب السياسي والاقتصادي .

ولأهمية هذه المستويات بشتى صنوفها الذي عاشته الأمة الإسلامية ينبغي دراستها وتوضيحها وبيانها بالشكل الذي يسهم في إظهارها وتوثيقها للأجيال القادمة لذا انعقد البحث والدراسة .

وقبل البدء ينبغي الإشارة إلى عدد من المسائل المهمة التي تُبين الإطار العام للدراسة والتي من خلالها تتوضح العديد من الأمور المرتبطة بالبحث والتي بُنيت هيكلية الدراسة ومفاصل البحث عليها وكما يأتي :

١ - أعتمد الباحث في منهجه على اختيار العنوانات الأساسية للدراسة التي تُشكل أساساً في حضارة الأمة الإسلامية وتوضح ريادتها في ذلك .

٢ - أتقى الباحث العنوانات البحثية للدراسة من حيث الترتيب المنهجي للتفكير العلمي الرصين ومن ثم إدراج مطالبه ضمن تسلسلها الزمني .
نسأل الله تعالى أن يوفقنا الى عرض ذلك بالصورة التي تبين هذه المكانة الكبيرة لعلمائنا وما قدموه لنا طوال تلك الحقب المضنية .

قال تعالى :

﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ آل عمران / ١٠٤

المطلب الأول : الشيخ المفيد (ت : ٤١٣ هـ) وأثره في تأسيس الحركة الفكرية في عصر الغيبة الكبرى

يعدّ الشيخ المفيد من علماء الشيعة المؤسسين في المجال الفكري والمعرفي ، وهذا ما يدعوننا للوقوف على أعتاب هذا الجبل الشامخ وأهم الإنجازات التي أسسها ، ولتوضيح ذلك يتوزع المطلب على ثلاثة مقاصد وكما يأتي :

المقصد الأول : لمحة عامة عن حياة الشيخ المفيد (قدّه)

أولاً : اسمه ونسبه وولادته

هو محمد بن محمد بن النعمان ، يكنى بأبي عبد الله ويلقب بالمفيد وبأبن المعلم ، وتقرن بأسمه ألقاب أخرى منسوبة إلى مدن ومواقع وقبائل وغيرها ، كالبغدادي والكرخي والعكبري والعربي والحارثي^(١) .

وولد الشيخ المفيد عام (٣٣٨ هـ) وقيل أن ولد في الحادي عشر من ذي القعدة عام (٣٣٦ هـ) في عكبرا من أعمال بغداد على عشرة فراسخ منه في محلة سويقة ابن البصري

، ثم انتقل الى بغداد وأخذ من علمائها ثم أصبح شيخ الإمامية وزعيمها الذي لا ينزع وكل من تأخر عنه استفاد منه^(٢) .

وتلحق بالشيخ المفيد ألقاب وكنى تدلّ على مكانته العلمية والفكرية كالمفيد وابن المعلم أو يكتفى بلفظ (أبو عبد الله) أو (ابن النعمان) ويستفاد من تلك الألقاب عروبه وعلميته وسكنه كالبغدادي والكرخي والحارثي وهو الجد السادس عشر للشيخ المفيد^(٣) .

وكان لوالده أثر في تربيته لأنه كان معلماً في واسط ثم هجرها إلى عكبرا ومنها إلى بغداد ولهذا لقب بأبن المعلم حتى صار عدلاً للقبه في الشهرة .
ثانياً : حياته العلمية

للشيخ المفيد مكانة علمية جليّة ، إذ أحرز مرجعية الناس إليه في العديد من البلدان حتى جلس إليه طلاب درسوا على يديه في مدرسة الفقه والأصول والعقائد وعلوم القرآن والحديث والأدب .

وبعد الشيخ المفيد موسوعة زمانه في العلوم الدينية ، فقد قصده السائلون يستجوبونه فيقف علماً بارزاً بعقله ولسانه وذكائه للإجابة على مسائلهم ودحض شبهة البعض منهم ، فكانت أفكاره تنفتح كتباً موسّعة ورسائل موجزة في مختلف علوم الدين^(٤) .
وأشار الشيخ الطوسي (ت : ٤٦٠ هـ) وهو من تلامذته البارزين بأن مؤلفات الشيخ المفيد ناهزت المائتي مؤلف^(٥) .

ومن يتابع المكتبة الإسلامية يجد الشيخ المفيد بين سطورها ، فلقد ترك أثر واضح في حقول المعرفة الدينية المختلفة .

ثالثاً : جهوده الفقهية

بعد الشيخ المفيد أول فقيه إمامي وصلت إلينا كتبه في الفقه والأصول بعد حصول الغيبة الكبرى للإمام المعصوم عليه السلام ؛ إذ الفقهاء كانوا يعتمدون في زمان حضور المعصوم عليه السلام عليه في كل صغيرة وكبيرة .

وقد حقق الشيخ المفيد في هذا المضمار جهوداً واضحة في مسيرة الفقه الإسلامي الإمامي ، فالحيوية المعرفية تمنح لكل عصر حاجته وكفايته من التنظيم والتشريع ، إذ من مميزات التشريع الإسلامي المرونة والواقعية وصلوحه كل زمان ومكان.

المقصد الثاني : جهود الشيخ المفيد في علم الكلام

للشيخ المفيد (ره) جهود كبيرة في توضيح وإظهار الجهد الكلامي في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) وصياغته صياغة فنية تبعاً للتراكم المعرفي الموجود عنده .
إن الشيخ المفيد ورث في مجتمعه تراثاً كلامياً مضاعفاً بالإمكان حصره في أمرين :
الأمر الأول : تراث متكلمي الإمامية وبالأخص النوبختيين الذين كانوا على اتصال بالفكر الاعتزالي منذ نهاية القرن الثالث الهجري .

وقد ساعدهم هذا الإتصال على تطوير الجانب الفني والصياغي في طرح النظريات الكلامية المتعلقة بجوانب متعددة .

الأمر الثاني : تراث أصحاب مدرسة الحديث في قم وفي مقدمتهم ابن بابويه القمي الذي كان يترأس مدرسة قم .

وفي ضوء ذلك فإنه بالإمكان الإشارة الى بعض تلك الجهود بما يأتي :

١ - استعمل الشيخ المفيد الأدلة العقلية في الدفاع عن تعاليم النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته الأطهار (عليهم السلام) ، وعلى الرغم من أن المفيد كان يرفض الاعتقاد الذي يتوكل على التقليد الصرف إلا أنه يرى أن الوحي ضرورة مطلقة لبلوغ معرفة الله والمبادئ الإسلامية .

٢ - تقترب الصياغة الفنية للطرح الكلامي عند الشيخ المفيد (ره) مما طرحه الكلاميون من المعتزلة على مستوى الصناعة ، لكن يبقى الجوهر الكلامي والبعد العلمي فيها معتمداً على ما ورد عن طريق أهل بيت العصمة والطهارة (عليهم السلام) .

وفي ضوء هذه الملاحظة فالشيخ المفيد (ره) يعدّ خطأً وسطاً بين طرح علم الكلام حديثاً وبين طرح علم الكلام عقلياً صرفاً ، فقد كان برزخ بينهما ، مستفيد من تراث

المعصومين (عليهم السلام) من ناحية المادة الكلامية ومستفيد من المعتزلة الصياغة الفنية .

٣ - استطاع الشيخ المفيد (ره) ايقاف النمو المطرد لحركة الغلاة التي تنامت بشكل كبير القرن الرابع الهجري مما حدى بالمفيد من بذل جهود كبيرة في إعادة المادة الكلامية الإمامية والصياغة الفنية للطرح الكلامي .

٤ - قام الشيخ المفيد (ره) بقيادة حركة علمية كبيرة في الدفاع عن عقائد أهل البيت (عليهم السلام) التي أراد بعض ضعيفي النفوس تلويثها ببعض الترهات أو تسويقها بالشكل الضعيف أو المختزل^(٦) .

ومن هنا يُعد الشيخ محمد بن محمد بن النعمان شخصية استثنائية في تاريخ الفقه الشيعي الامامي واليه تنسب الكثير من الأصول الكلامية والفقهية عند الشيعة الإمامية ، حتى نظر اليه من قبل بعض الباحثين المخالفين للشيعة الإمامية بأنه مؤسس مذهب الامامية في الكلام والفقه.. لاسيما وأن مرجعيته الدينية والفقهية جاءت في البدايات الاولى لعصر الغيبة الكبرى التي بدأت في نهاية النصف الاول من القرن الرابع الهجري في العام ٣٣٩ هـ ..

وقد عرفت باسم مدينة مدرسة بغداد في تاريخ الفقه الامامي في قبال مدرسة قم ، مدرسة المحدثين والახباريين ، وكان الجدل الفقهي بينهما قائماً بالمحاججات الروائية والعقلية . وقد أسهمت مناخات بغداد الفكرية والثقافية في توسيع آفاق النظر الكلامي والفقهي عند الشيخ المفيد فقد كانت بغداد في عصر الشيخ المفيد في القرن الرابع تزخر بالمدارس الفكرية - الدينية من معتزلة الى اشعرية الى صوفية ، بينما كان يغيب فيها الاثر الامامي في هذا الجدل الفكري والديني ، حتى قالوا في فقهاء الامامية إنهم يفتقرون إلى التفريع في المسائل الأصولية والفقهية ، وقد نقل هذا الكلام الشيخ الطوسي في توصيف المذهب الامامي في هذا العصر من الفقهاء الآخرين من المذاهب الإسلامية الأخرى ، وذلك لان المحدثين وفقهاء الخبر والنقل كانت لهم هيمنة بادية على الوسط الفقهي الامامي ، وكان الجدل والكلام ينظرون اليهما بارتياب من جانبهم.

وقد أكسب هذا الجدل الفكري والتطور الكلامي في بغداد في القرن الرابع الهجري الذي وصف بأنه قرن العقل الإسلامي أو القرن الحضاري الإسلامي، اكسب الشيخ المفيد ذلك التنوع في المعرفة الدينية، وإطلاعه على كل مدارس الفكر الإسلامي، وآراء علم الكلام في المذاهب الإسلامية، لاسيما وأنه درس على شيوخ من المعتزلة والاشاعرة والامامية. وقد تمكن من خلال ذلك على الدخول باسم الفكر والكلام الإمامي إلى هذا الجدل البغدادي والإسلامي، يخوض مناظراته مع المخالفين لمذهبه من المعتزلة والاشعرية، بل وحتى من الإمامية، ويفاجئون بغزارة علمه وقوة حجته، حتى أقروا له بالفضل العلمي مبكراً، ويقال ان لقبه المفيد قد أطلقه عليه أستاذه المعتزلي أبي علي الرماني.

لقد سعى الشيخ المفيد، إلى تثبيت موطأ قدم راسخ للمذهب في بغداد بل وفي ميادين السياسة، وهي على الأقل ضماناً لقوة ونفوذ المذهب في زحمة صراعه التاريخي مع الاتجاهات الفكرية المذهبية والسياسية التي سادت المجتمع الإسلامي.

المطلب الثاني : الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت : ٤٦٠ هـ)

يعدّ الشيخ ابو جعفر محمد بن الحسن الملقب بـ (الطوسي) من أجلّ علماء الامامية على مدى تاريخها الطويل والحافل بكبار العلماء والفقهاء، وتدلنا آثاره العلمية ومؤلفاته وتلامذته على علمية واسعة وثقافة موسوعية شاملة، فلم يترك باباً من أبواب العلم إلا وطرقه وحاز فيه على قصب السبق، فقد ألّف الطوسي في التفسير والحديث والفقه والأصول والعقائد وعلم الكلام والتراجم والسير والعبادات والفقه المقارن وغيرها وقد امتاز بسعة الاطلاع في كل باب ألف فيه فكان ذا أفق واسع وعقلية متفتحة على آفاق العلم المتباعدة ومصادره المتنوعة.

أولاً : ولادته ونشأته

ولد الشيخ الطوسي في شهر رمضان عام ٣٨٥ هـ في مدينة طوس بخراسان التي اشتهرت بكونها مركزاً علمياً مرموقاً ففيها قبر الإمام علي بن موسى الرضا (ع) وقد تخرج فيها من أئمة العلم والفقه (ما لا يسعهم الحصر)^(٧).

ومن المصادفات تسمية اثنين من أبرز العلماء الذين انجبتهم طوس بالطوسي ، إذ قد شاركنا شيخنا الطوسي في إسمه ولقبه وهما محمد بن الحسن الطوسي والد نصير الدين الفيلسوف المعروف بـ (الخواجه) والمتوفي سنة ٦٧٢ هـ والمدفون بجوار الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) ومحمد بن الحسن الطوسي الخراساني الفقيه صاحب كتاب (الفيروزجة الطوسية في شرح الدرة الغروية) في فروع الفقه.

نشأ الشيخ الطوسي في مسقط رأسه طوس ردياً من شبابه وتلقى دروسه الأولى بها، ولم تذكر المصادر شيئاً عن دراسته المبكرة أنه درس أوليات العلوم النقلية والعقلية التي كانت دراستها لازمة لمن هو في مثل مرحلته وسنه ، ولم يطل به المقام في طوس فقد كان تواقاً لطلب العلم أينما حل فهاجر وهو ابن الثالثة والعشرين من عمره الى بغداد التي كانت حاضرة العالم الاسلامي حيث مدراس العلم ومجالسه تموج بالعلماء والفقهاء والمتعلمين وتعجّ بالوافدين من كل حذب وصوب فوجد فيها شيخنا ما يطمع إليه.

ثانياً : حياته العلمية

وصل الطوسي الى بغداد عام (٤٠٨ هـ) وما إن استقر به المقام بها حتى بدأ ينهل من علوم مجالسها وكانت فاتحة تعلمه في عاصمة العلم آنذاك على يد الشيخ ابي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان الملقب بـ (المفيد) والمعروف بـ (ابن المعلم) فقيه الإمامية واستاذهم ورئيسهم في ذلك الوقت والذي كان مجلسه في الفقه والكلام وغيرهما من العلوم والمعلومات يحضره كثير من أهل العلم كما كانت له مناظرات في علم الكلام مع أبي بكر الباقلاني والقاضي عبد الجبار المعتزلي والرماني حفظتها المصادر الإسلامية والعربية .

وكان حضوره لمجلس استاذه المفيد ممهداً لتبحره في العلوم وقد لازم الطوسي الشيخ المفيد خمس سنوات أي من عام ٤٠٨ هـ وهي السنة التي ورد فيها الى بغداد حتى عام ٤١٣ هـ وهي السنة التي توفي فيها الشيخ المفيد .

وبيتين أثر دراسة الطوسي على يد المفيد وما تلقاه عنه من العلم فيما رواه عنه في كتابه (الاستبصار فيما اختلف من الأخبار) .

ثم انتقل شيخنا الطوسي الى مجلس علي بن الحسين الموسوي المعروف بـ (الشريف المرتضى / ت : ٤٣٦ هـ) الذي آلت إليه رئاسة الإمامية بعد وفاة الشيخ المفيد فكانت داره في الكرخ يؤمها الكثير من طلبة العلم وكان شيخنا من ابرز هؤلاء الطلبة وقد لازم الطوسي استاذته المرتضى مدة طويلة بلغت ثلاثة وعشرين عاماً حيث لقي منه رعاية واهتماماً بالغين اذ جعل له داراً في الكرخ وأجرى له عطاءً شهرياً مقداره اثنا عشر ديناراً، وقد نهل شيخنا في مجلس المرتضى علوماً مختلفة حيث كان مجلس المرتضى يحوي دراسات متنوعة في الفقه والأصول والتفسير والكلام والعقائد واللغة والأدب وغيرها. وازضافة الى هذين العلمين الكبيرين الذين تتلمذ عليهما الطوسي فقد اخذ العلم كذلك على يد علماء كبار آخرين منهم : ابو عبد الله احمد بن عبد الواحد البزار المعروف بـ (ابن عبدون) و (ابن الحاشر) الذي وصفه الطوسي بأنه كثير السماع والرواية وبين أنه أجاز له بجميع ما رواه وقد روى عنه في كتابيه (الامالي) و (الاستبصار) ومنهم ابو عبد الله الحسين بن عبد الله الغضائري الذي ذكره في (الفهرست) و (الرجال) وروى عنه في (الامالي) كثيراً من الاخبار وقد وصفه بأنه كثير السماع عارف بالرجال له تصانيف ثم قال (سمعنا منه وازاز لنا بجميع رواياته) ومنهم ايضاً ابو الحسين علي بن أحمد بن ابي جيد القمي وقد ذكره الطوسي في مواضع عديدة من (الفهرست) مشيراً الى أنه روى عنه مصنفات بعض الإمامية كما روى عنه في (الاستبصار) عدة اخبار وهناك شيوخ كثيرون أخذ عنهم الطوسي وذكرهم في كتبه وروى عنهم في أماليه منهم ابو عبد الله الحسين بن ابراهيم القزويني وابو طالب بن عزور وابو القاسم علي ابن شبل الوكيل وغيرهم^(٨) .

ولسنا بصدد حصرهم فهم كثيرون وإنما نحن بصدد الإشارة فقط الى ما يلقي الضوء على مصادر دراسته وثقافته الواسعة. فقد نهل الطوسي من معين العلم وجنى ثماره على يد أساطين العلماء وهذا ما جعله موسوعياً في تأليفه، كثير العناية بالموازانات في

كتبه، مجدداً في أسلوبه الدراسي والعلمي تجديداً فاق من سبقه ومن لحقه، فقد بدأ بهذا الشيخ الرائد عصر العلم الجديد الذي أصبح الأصول فيه علماً له دقته وصناعته وذهنيته العلمية الخاصة، وتشعرنا مؤلفاته العلمية والفقهية بهذه الثقافة الواسعة فهي بحر زاخر يوج بمختلف العلوم فكانت ثقافته الواسعة في علم الكلام - وله فيه أكثر من مؤلف - هي التي حدت بالخليفة القائم بأمر الله أن يمنحه منصباً علمياً ممتازاً هو كرسي علم الكلام وهو أرفع منصب في هذا العلم ولا يحظى به إلا من أوتي علماً جماً ومملكة فائقة على المناظرة والحجاج .

وانتقلت الرئاسة العلمية والأستاذية المطلقة إلى شيخنا الطوسي بعد وفاة السيد المرتضى عام ٤٣٦ هـ وصار الإمامية يرجعون إليه فكانت داره التي تقع في الكرخ يؤمها طلبة العلم من البلاد الإسلامية كافة.

ثالثاً : دور الشيخ الطوسي في مجال الفكر

استطاع الشيخ الطوسي وبكل جدارة أن يرسى قواعد الفكر الصحيح على أسسه ، فاضطلع بمهمة التغيير على أوسع نطاق ، خصوصاً وقد شاهد خطورة الموقف الإسلامي إزاء تلوث المجتمع بالمفاهيم الدخيلة الوافدة إليه عن طريق الفلسفات الأجنبية التي تسربت رويداً إلى ساحته عبر القنوات الكثيرة التي شقتها فتوحات العصر الأموي (٤٠ - ١٣٢ هـ) وأوائل العصر العباسي (١٣٢ - ٢٣٤ هـ) ، وما نتج عن ذلك من نشوء التيارات الفكرية الخطيرة ، مع بروز حركة الزندقة بفعل تلك الرواسب الثقافية الدخيلة ، فضلاً عن استشراف الفساد الخلقي في عاصمة الخلافة - دمشق ثم بغداد - على أثر تصدير الانحراف إلى شرائح المجتمع من قصور الخلفاء أنفسهم ، ويشهد على ذلك الكثير مما وصل إلينا من أدب البلاط في ذينك العصرين من المجون والترف .

لقد استمرت مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام) في أداء رسالتها ممثلة بأعلامها الكبار ، يغذيها الأئمة من ولده (عليهم السلام) من بعده بفيض من علم النبوة ونور الولاية ، ولم يخب ضوؤها بتعاقب الأزمان وتجدد الملوان^(٩) .

وما الشيخ الطوسي (رحمه الله) إلا واحد من أولئك الأقطاب الذين كان دورهم مميزاً فيها على صعيد العلوم الإسلامية بأسرها . وهو كما يقول أحد أبرز علماء العصر واصفاً جانباً من دوره العظيم :

((إن الشيخ الطوسي لم يكن وجوده ودوره على الخط العلمي تعبيراً عن مجرد إضافة عددية إلى العلماء الذين سبقوه ، وإنما كان منطلق رحلة جديدة من تطور الفكر الفقهي والأصولي في الإطار الشيعي . وبالرغم من أن طاقات علمية تدريجية - مهدت لهذا المنطلق - اندمجت فيه من قبيل العطاءات العلمية التي تعاقبت من ابن أبي عقيل ، وابن الجنيد ، والشيخ المفيد ، والسيد المرتضى قدس الله أرواحهم ، فإن نبوغ الشيخ الطوسي هو الذي استطاع أن يصب كل تلك الطاقات في بناء علمي واحد ، ويضيف إليها من عطائه وإبداعه ما هياً للعلم أسباب الانتقال إلى مرحلة جديدة من مراحل النمو والتطور))^(١٠) .

المطلب الثالث : أثر العلامة الحلي (ت : ٧٢٦ هـ) في تطور الحركة الفكرية
لم يعرف التاريخ مثيلاً للعلامة الحلي ، رجل أنعم الله عليه بالموهبة المتميزة والعبقرية الفذة ، فامتلك شجاعة كبيرة وذكاءً مفرطاً وعقلاً واعياً مدركاً ، وتفجرت في أعماقه طاقة هائلة من الفكر والمعرفة والعلوم ، واكبها عمل دائم وجهد مستمر...
موهبة لا تزال في قمته العلمية حتى الآن ، وشخصية لا تزال عبقريتها تسيطر على أجيال العلماء المتعاقبين بعده ، وكان لها التأثير الفعال على مفكري الإسلام قاطبة ، المعاصرين له والمتأخرين عنه ، فقد تلاقت فيه شخصيات علمية عديدة ، كل منها شامخة بارزة ، فكما كان من أعلام الفقه والشريعة ، يؤخذ قوله حجة ويعول عليه ، كذلك كان من أبرز مفكري عصره في الكلام والفلسفة ، عالم دفع قافلة المعرفة الإسلامية وشارك في بناء الحضارة وفي رفع صرحها عالياً ، رائد من رواد الحق وحامي من حماته ، ومدافع قوي عن مبدأ أهل البيت الذي تظاهرت عليه قوى الظلام وحاربت أتباعه ، بكل سلاح ، بالافتراءات والدعايات الكاذبة ، وبكل أنواع العذاب والتنكيل .. بالقتل والسجن والتشريد^(١١) .

أولاً : ولادته ونشأته

ولد الحسن بن يوسف بن (زين الدين) علي بن محمد بن المطهر ، الملقب بالشيخ (جمال الدين أبو منصور) والشهير بـ(العلامة الحلي) و(آية الله) في ليلة الجمعة (٢٨ رمضان ٦٤٨هـ) في الحلة الفيحاء ، المدينة التي بناها أمير العرب سيف الدولة صدفة بن منصور بن مزيد الأسدي ، ونشأ رضوان الله عليه في دار المؤمنين (الحلة) في بيت عريق ، هو بيت الزعامة الدينية والعلمية ، وفي جو ذي حركة علمية رصينة ، سارت عليه أسرته العربية الصحيحة ، وحظي بعناية كبيرة من أبيه سديد الدين يوسف بن المطهر الحلي الذي كان من كبار علماء عصره ، وعد من أعلم أهل زمانه في الفقه والأصول ، فتلقى منه الفقه والأصول العربية والعلوم الشرعية وبدراسة فقهية مقارنة ، ومن خاله فقيه أهل البيت الشيخ نجم الدين أبو القاسم جعفر بن سعيد بن يحيى الهذلي المعروف بالمحقق الحلي (ت ٦٧٦هـ) صاحب الكتب الفقهية الشهيرة (شرائع الإسلام - المختصر النافع - المعتمد) ، كبير الفقهاء ورئيس المذهب ، الذي كان يقود زعامة العلم والشرعية في العراق ، ويشرف على إدارة الجامعة الشيعية التي كانت الحلة يوم ذاك مركزها الرئيسي ، فيغذيها بعقله وروحه ويبدل في سبيلها ما في وسعه من جهد و طاقة^(١٢) .

١ - تربيته

مع عنايتهما بالعلامة الحلي ، خصصا له منذ صغره معلماً يلقنه الكتابة والعربية والقرآن ، ثم صحبهما صبياً ، فدرس عليهما الكلام والمنطق وغيرهما ، فتقدم وبرع وأفتى وسبق الأعلام ولم يزل في عنفوان الصبا مما لفت إليه الأنظار ، ثم درس على يد المحقق نصير الدين الطوسي الطوسي (العقليات والرياضيات) وعلى كمال الدين ميثم البحراني شارح نهج البلاغة (الحكمة) و(البلاغة) ، كما تتلمذ على يد عمر بن علي الكاتب القزويني صاحب (مجالس المؤمنين) ، و محمد بن أحمد الكشي وغيرهم من علماء المذاهب الإسلامية كافة.

عاش العلامة الحلي أواسط القرن السابع الهجري وعقدين من القرن الثامن ، يوم اجتاحت الجيش المغولي البلدان الإسلامية ، وشهد وهو ابن السابعة فرار أهل المدينة ذعراً

و خوفاً من الغزو التتري بعد أن ذاعت أخبار ما ارتكبه من فظائع في بغداد ، دون أن يأبهوا بنصيحة والده سديد الدين ، الذي مضى وحده مع رسل هولاء القادمين لاستحضار وجهاء البلدة بين يديه ، فعاد بعد أيام يحمل كتاب الأمان لأهل الحلة والمراقد الشريفة في النجف الأشرف وكربلاء ، فحال بذلك دون استكمال الكارثة التي حلت بالعالم الإسلامي ، وما هي إلا سنوات حتى اتبع الابن طريق والده ، فبقدرته الفائقة وعلميته الرصينة وبما وهبه الله من طاقات فكرية عملاقة ومن قوة علمية قادرة تبدد الظلام إلى نور ضد الموجة الطاغية التتريّة ، واستطاع التأثير على قادة المغول باعتراف الدين الإسلامي والتشيع ، ومن ثم رغبوا في العلم وقربوا العلماء .

٢ - نبوغه :

نبغ العلامة الحلي ، وبرزت فيه سيماء الزعامة والإمامة الدينية منذ صباه ، وتقدم في بداية شبابه على كبار العلماء والفقهاء وكان آية في الذكاء وأحد النوابغ الأفاذا وأبرز شخصية علمية ، نبغ في الأصول والحكمة والكلام والمنطق والطبيعات وعلوم الشريعة والعربية .

ولا نجازف إذا قلنا : إنه أكبر عالم شيعي أخذ بأسباب المعرفة الإسلامية في نضج واستيعاب ظهر حتى الآن ، فقد انتهت إليه زعامة الشيعة الإمامية في عصره في المنقول والمعقول والفروع والأصول ، وله في ترويج مذهب أهل البيت مساع حميدة ، واشتهرت تصانيفه التي ساعدت في هبوط اسهم التعصب الطائفي وساهمت في التبليغ لمذهب آل البيت (عليهم السلام) والجهر بأرائهم ، والتأثير على قطاعات واسعة من العلماء والمفكرين والقادة .

ثانياً : شخصيته

لقد تمثلت شخصية العلامة الحلي القوية ، بمواقفه المبدئية فهو يحذو في تفكيره حذو أستاذه الفيلسوف الطوسي ولكن بحرية وتجرد ، محتفظاً بأفكاره المستقلة ، التي ظهرت في معارضته لكثير من آرائه ونقدها والتنظير فيها ، وذلك في مواضع كثيرة عديدة من (شرح التجديد) و (كشف الفوائد) ، وبالإمكان توضيح ما يرتبط بشخصيته بما يأتي :

١- شهرته :

ترتكز شهرة العلامة الحلي في الأكثر على الحكمة والكلام والفقه والرجال ، وعلى كثرة إنتاجه وغزارة مؤلفاته التي لا تزال حتى اليوم مصدراً للثقافة الإسلامية وفي أكثر فروع المعرفة في جامعات الشيعة العلمية ، فهو صاحب مدرسة علمية وفكرية عاشت طويلاً ولا تزال ظلالها بارزة على تفكير الكثير من العلماء إلى اليوم ، وبخاصة في التشريع والكلام ، وإن شطراً من آثاره ولا سيما في الفقه والفلسفة الإسلامية لا يزال مرجعاً كبيراً في هذه الجامعات .

وجاء في سفينة البحار ما نصه : ((اشتهر العلامة بذكائه المفرط وفطنته المرفهة ، وحضور جوابه ، وقوة حجته ، وسعة أفقه ووعيه ، كما اشتهر في زهده وعبادته وإخلاصه ، ويروى عنه في ذلك ما يشبه الأساطير))^(١٣) ، أما في التصنيف فكان أعجوبة في القدرة على التأليف واستحضار المحفوظ من العلوم ، أعجوبة في كثرة التأليف ، وصفه مترجموه فقالوا (كان في أسفاره يؤلف وهو راكب) .

وليس عبثاً أن يطلق لقب (علامة) عليه بعد أن بلغ القمة في العلوم وفاق علماء عصره على الإطلاق ولم يسبق لأحد من علماء الشيعة أن لقب بهذا اللقب غيره ، فكان (شيخ الطائفة) و (آية الله) و (صاحب التحقيق والتدقيق) و (العلامة ذو الفنون) و (صاحب التصانيف) التي اشتهرت في حياته ، وكان إماماً في الكلام والمعقولات ، كما اشتهر بحسن الأخلاق والذكاء المفرط ، وبعلمه الموسوعي وغزارة تأليفه وتنوعه وسرعته وتصنيفه المنهجي لسائر المراحل الدراسية في شتى أبواب العلوم الإسلامية .

٢- تنوع آثاره

وقد مثل ابن المطهر أيضاً مرحلة هامة وبارزة في تاريخ الفكر الشيعي على ثلاثة أصعدة: الأول : الحديث وعلومه .

الثاني : أصول الفقه .

الثالث : الإصلاح الديني ونشر مذهب أهل البيت (عليهم السلام) .

لقد برع ابن المطهر في المعقول والمنقول ، وتقدم في شبابه على علماء عصره ، وقد فرغ من تصنيفاته الحكمية والكلامية ، وأخذ في تحرير الفقه قبل أن يبلغ ٢٦ سنة ، كما سبق غيره في فقه الشريعة وألف فيه المؤلفات المتنوعة من مطولات ومتوسطات ومختصرات ، فكانت محط أنظار العلماء في عصره إلى اليوم تدريساً وشرحاً وتعليقاً ، وفاق أقرانه في علم أصول الفقه وألف فيه المؤلفات المتنوعة فكانت برؤى مختلفة من حيث الاجتهاد والاستنباط ، كما برع في الحكمة العقلية حتى أنه باحث الحكماء السابقين في مؤلفاته وفاقته كتبه على ما نشره وأورد عليهم ، ومثلما ناقش الطوسي فقد باحث الرئيس ابن سينا في كتبه وخطأه ، وحاكم مؤلفه (بين شراح الإشارات أو الأحاديث) وألف كتباً كثيرة في الحكمة وفي علم الأصول وفن المناظرة والجدل ، وعلم الكلام من الطبيعيات والإلهيات والمنطق وألف في الرد على الخصوم والاحتجاج المؤلفات القيمة ، ويعود سر نجاحه وخلود آثاره ، وإن كتبه كانت وما تزال مرجعاً هاماً في الجامعات الدينية ومصدراً من مصادر الثقافة الإسلامية ولها الأثر البالغ عند علماء الإسلام ، وترتكز مدرسته الفكرية على الاستقلال في الرأي وإعمال العقل والنظر ، ولأنه من الصعوبة بمكان تدوين كل مؤلفاته ، إذ لا يتسع أي كتاب لذكر علومه وتصانيفه وفصائله ومحامده كلها ، فندرج بعضاً منها ، دون التطرق إلى كتبه الأخرى في المنطق وعلم الأخلاق وفي الأدعية الماثورة .

ثالثاً : دور العلامة الحلي في تطوير الفكر الشيعي واتساعه

دافع العلامة الحلي عن الحق بمنطق العقل لا بقوة السلاح ، وأخرس كل مبطل ومعاند وأحدث انقلاباً في الآراء والمعتقدات ، وتحدى كبار علماء المذاهب وأفحمهم بالحجج القاطعة فلم يسعهم إلا الإذعان له والتسليم ، وملخص الحكاية أن ملوك المغول بعد أن دخلوا الإسلام اتخذوا لهم أعواناً وأنصاراً من علماء المسلمين وأمرائهم على اختلاف مذاهبهم ، فكان علماء كل مذهب يغرون الحاكم المغولي بالدخول في مذهبهم وينفرونه من المذاهب الأخرى ، فاعتنق قازان خان مذهب التشيع وبقي عليه إلى أن توفي ، فقام مقامه أخوه السلطان (الجايغو محمد) الملقب بالشاه (خدا بنده) ، المغولي فمال إلى

مذهب الحنفية حتى جاء نظام الدين عبد الملك من مراغة إلى السلطان وكان عالماً شافعيّاً ماهراً في المعقول والمنقول ، فعينه قاضي القضاة ، فاغتنم هذه الفرصة مستغلاً منصبه واستمال السلطان إلى الشافعية ، وأخذ يناظر علماء الحنفية في مجلس السلطان بحججه وأدلته مما اقنع السلطان فاعتنق مذهبه^(١٤) .

وسأل قطب الدين الرازي : إذا أراد الحنفي أن يصير شافعيّاً فماذا يصنع ؟ فقال له : (يكفي أن يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله ..) .

وفي سنة (٧٠٩هـ) جاء عالم حنفي من بخارى إلى خدمة السلطان ، فشكا له الحنفية من نظام الدين قاضي القضاة وقالوا له : لقد أذلنا عند السلطان ، فأضمر هذا الشيخ أن يفحم القاضي أمام السلطان ، وصادف أن اجتمع الشيخان بحضرته يوم الجمعة وأخذوا بالمناظرة والجدال وبين كل منهما ما في المذهب الآخر من مساوئ فكانت النتيجة نفور السلطان من المذهبين واحتار في الأمر ، أي مذهب من المذاهب يختار .

ظهور الحق :

وفي تلك الأثناء وقع السلطان في مشكلة لم يجد لها حلاً ، إذ غضب على إحدى زوجاته فقال لها : (أنت طالق ثلاثاً) ، ثم ندم فسأل العلماء ، فقالوا : لا بد من (المحلل) فرفض وقال لهم : لكم في كل مسألة أقوال ، فهل يوجد هنا اختلاف؟ .

فقالوا : لا.. وعندئذ تدخل أحد وزرائه قائلاً : في الحلة عالم يفتي ببطلان هذا الطلاق . فامتعض العلماء وقالوا : إن مذهبه باطل ولا عقل له ولا لأصحابه ولا يليق بالملك أن يبعث إلى مثله والاستماع إليه ، فقال السلطان: أمهلوا حتى يحضر ونرى كلامه .

فبعث السلطان وفداً وأحضر العلامة الحلبي ، وحدد له موعد اللقاء وجمع علماء المذاهب لحضور المجلس ، وكان من مراسم البلاط أن الداخل على السلطان ينحني له أو يقبل الأرض بين يديه ، إلا أن العلامة الحلبي لم يفعل ذلك ، فحين قدم ودخل البلاط أخذ نعليه بيده ورفع يده بالتحية قائلاً (السلام عليكم) ، ثم جلس إلى جانب السلطان ، ولم يكن هذا قد رآه قبل الآن ، مما أثار عجبه واستغراب الآخرين ، فاستغل علماء المذاهب ذلك وقالوا للسلطان: ألم نقل لك أنهم ضعفاء العقول

فقال السلطان: أسألوه عن كل ما فعل.

فقالوا للعلامة الحلي: لماذا لم تخضع للسلطان بهيئة الركوع وتركت الآداب . فأجابهم: إن رسول الله (ص) كان سلطاناً وكان يسلم عليه ولم يكن يركع له أحد. والله تعالى يقول: ﴿إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾^(١٥) ولا خلاف بيننا وبينكم: إنه لا يجوز الركوع والسجود لغير الله سبحانه وتعالى.

قالوا: فلم جلست عند السلطان؟!.

أجاب: لأنه لم يكن مكان خال غيره..

قالوا: فلم أخذت نعليك بيدك وهو أمر مناف للآداب؟.

أجاب: خفت أن يسرقه بعض أهل المذاهب كما سرقوا نعل رسول الله (ص). قالوا: إن أهل المذاهب لم يكونوا في عهد رسول الله (ص) بل ولدوا بعد المائة فما فوق من وفاته(ص)!.

فالتفت العلامة الحلي إلى السلطان وقال له: قد سمعت اعترافهم هذا.. ولد أئمتهم بعد مائة عام فما فوق من رحيل الرسول (ص)، فمن أين جلبوا مذاهبهم؟. ولماذا الاجتهاد فيهم ولم يجوزوا الأخذ من غيرهم ولو فرض أنه اعلم؟!.

فتساءل السلطان بدهشة كبيرة: ألم يكن أحد من أصحاب المذاهب في زمن النبي (ص)؟!.

قال: لا.. ولم يكونوا حتى في زمن الصحابة.. ونحن نأخذ مذهبنا عن علي بن أبي طالب نفس رسول الله (ص) وأخيه وابن عمه ووصيه وعن أولاده من بعده.. فسأل السلطان عن مسأله (الطلاق).

فقال العلامة: باطل لعدم وجود الشهود العدول.

هذه الإجابة المطلقة أفرحت السلطان وعظمت شأن مذهب أهل البيت (عليهم السلام) في نفسه.

وحتى لا يتسرع في اتخاذ القرار المناسب أشار عليه وزيره أن يجمع العلماء من جميع المذاهب ويتناظروا في حضوره.. فأمر السلطان بذلك..

وتقرر أن يحضر من قبل علماء السنة الخواجة نظام الدين عبد الملك المراغي الذي كان أفضل علماء الشافعية وأفضل علماء السنة مطلقاً فحضر وتناظر مع العلامة الحلي. وكانت المسألة الأولى موضوع الإمامة.. فأثبت لهم العلامة مدعوماً بالبراهين والأدلة القاطعة خلافة الإمام علي (ع) بعد الرسول (ص) بالأفضل.. وبطلان تقليد الأئمة الأربعة وأظهر ذلك للحاضرين جلياً لا لبس فيه بحيث لم يبق أمامهم موضوع للشك وجرى البحث بين العلامة وعلماء المذاهب الأخرى حتى ألزمهم جميعاً وأفحمهم وأثبت الحقائق الناصعة لعقيدته.

فلم يجدوا إلا التسليم له، وشهد له نظام الدين بفضل العلامة واعترف بصواب رأيه وقوة حجته وقال : قوة هذه الأدلة في غاية الظهور أما من حيث السلف سلكوا طريقاً والخلف لأجل إجماع العوام ودفع تفرقة الإسلام أسبلوا السكوت عن زلل أولئك ومن المناسب عدم هتك ذلك الستر، وأعجب السلطان بما سمع من العلامة فأعلن تشيعه في ذلك المجلس واعتنق هو وجميع أمرائه ورجاله مذهب الإمامية، وأقام مذهب أهل البيت في البلاد وخطب بأسماء الأئمة الاثني عشر في جميع أنحاء مملكته التي تمتد في إيران والعراق وأمر بضرب السكة بأسماء الأئمة وأمر بكتابتها على المساجد والمشاهد.. وتعززت مكانة العلامة الحلي عند السلطان وأجرى بخدمته (المدرسة السيارة) تنتقل معه في أنحاء البلاد، فراح يخطب ويعلم ويدرس ويؤلف.. وكان رائده الإصلاح الديني في عصر كثرت فيه البدع الضالة والفتن والدسائس ضد دين محمد (صلى الله عليه وآله) ومع ذلك لم يدفع السلطان إلى إنكار علماء المذاهب الأخرى ولم ينس أحدهم أو يبخسهم حقوقهم احتراماً للدين.

وقد شهد المؤرخون للسلطان بالعدل وحسن السيرة واستقرار بلاد الإسلام مدة حكمه بفضل العلامة الحلي وتوجيهاته، ولأجل هذا السلطان صنف العلامة الحلي كتاب (كشف اليقين) و(تاج الكرامة).

الخاتمة ونتائج البحث

من الطبيعي أن يكون لكل بحث ودراسة مجموعة من النتائج التي توصل لها الباحث وأفرزتها معايير البحث العلمي الرصين والتي بالإمكان إجمالها بما يأتي:

١ - لعلماء العراق دور كبير في المحافظة على الحضارة العلمية الإسلامية على مر التاريخ الاجتهادي والذي يصعب فيه إختزال ذلك الكم المعرفي الكبير بعدد من الصفحات إلا إن طبيعة البحث تقتضي ذلك.

٢ - استطاع فقهاء الشيعة من تقديم العديد من الخدمات للإمة الإسلامية وحضارتها العلمية من خلال تغيير المناهج العلمية في مدرسة النجف وحوزتها وتأسيس العديد من المراكز البحثية التي لا زال العديد من العلماء يفتخر بذلك، وكان في مقدمتهم الشيخ المفيد والشيخ الطوسي والشيخ الحلي .

الملخص:

يتمثل الدور الأساسي للمعصوم عليه السلام في هداية بني البشر وتهذيبهم وتقويمهم والمحافظة عليهم وإرشادهم لما فيه الخير والصلاح من خلال إدارتهم الحكيمة للمجتمع الإنساني ، وبالفعل ، تم ذلك وعلى أتم وجه فوجود المعصوم عليه السلام بين ظهراني الأمة الإسلامية يمثل صمام الأمان لها والقلب النابض في جسدها .

فكان وجود المعصوم عليه السلام له الأثر الأكبر في حياة الأمة الإسلامية وقيادتها حتى في زمن الغيبة الصغرى للإمام الثاني عشر عليه السلام عن طريق سفرائه الأربعة ، لكن بعد وقوع الغيبة الكبرى للإمام المعصوم عليه السلام بدأت مرحلة جديدة في تاريخ مذهب أهل البيت عليهم السلام تمثلت بقيام فقهاء الشيعة الإمامية في التصدي لمختلف الجوانب المرتبطة بالأمة الإسلامية في سبيل المحافظة على حضارتها وارثها العظيم وديمومتها واستمرارها للأجيال القادمة .

وبالفعل استطاعت نخب الفقهاء للأمة الإسلامية وبالأخص فقهاء الإمامية في دفع عجلة الحضارة ومواكبة التغيرات الموضوعية التي تستتبع تغيرات حكمية كثيرة فضلاً عن التطورات العلمية ، وسد الفراغ والمستجدات في مجالات مختلفة سواء أكانت على

مستوى الفكر والتجديد المنهجي أم على المستوى الدرايتي والفقهني أم على مستوى الجانب السياسي والاقتصادي .

ولأهمية هذه المستويات بشتى صنوفها الذي عاشته الأمة الإسلامية ينبغي دراستها وتوضيحها وبيانها بالشكل الذي يسهم في إظهارها وتوثيقها للأجيال القادمة لذا انعقد البحث والدراسة .

وقبل البدء ينبغي الإشارة إلى عدد من المسائل المهمة التي تُبين الإطار العام للدراسة والتي من خلالها تتوضح العديد من الأمور المرتبطة بالبحث والتي بُنيت هيكلية الدراسة ومفاصل البحث عليها وكما يأتي :

١ - أعتمد الباحث في منهجه على اختيار العنوانات الأساسية للدراسة التي تُشكل أساساً في حضارة الأمة الإسلامية وتُوضح ريادتها في ذلك .

٢ - أنتقى الباحث العنوانات البحثية للدراسة من حيث الترتيب المنهجي للتفكير العلمي الرصين ومن ثم إدراج مطالبه ضمن تسلسلها الزمني ، فقد يجد القارئ الكريم ضمن البحث الواحد عدداً من الفقهاء الأعلام سواء من المتقدمين أم المتأخرين أم من متأخري المتأخرين فالجامع لهم هو السمة البحثية البارزة لدى الأعلام والعنوان المبحوث مع المحافظة على المسار التاريخي في ما بينهم .

٣ - يختار الباحث لكل محور ثلاثة علماء أعلام فقط لبيان الخصائص المبحوثة وإلا فإن الفقهاء الذين أسهموا لا يمكن حصرهم بهذه العجالة الزمنية والمساحة البحثية للدراسة ، واختيار البعض منهم كنماذج تطبيقية لا يعني إهمال الآخرين فكلهم نجوم لامعة في سماء العلم المعرفة .

ونظراً لتشعب الموضوع سيقصر الباحث على (دور علماء الشيعة الإمامية في تأسيس الحركة الفكرية والتجديدية في منهج البحث العلمي) آملين البحث عن الاتجاهات الأخرى في مناسبات أخرى .

وقد انتظم البحث عن ذلك بمقدمة ومبحثين وخاتمة لأهم النتائج التي توصل إليها الباحث وكما يأتي :

أولاً : المقدمة

اشتملت المقدمة على بيان أهمية الموضوع وسبب اختياره وطريقة البحث التي اختطها الباحث لنفسه ، ومن ثم استعراض المنهجية العامة للبحث والدراسة .

ثانياً : دور علماء الشيعة في تطوير الحركة الفكرية

كان لعلماء الشيعة دور كبير في تطوير الجانب الفكري ، وقد انعكس ذلك بشكل واضح على مختلف الجوانب الحياتية والمعرفية ، ولأهمية هذا الجانب ينبغي دراسته وبيانه وتوضيحه من خلال دراسة بعض المصاديق المنتخبة لمكانتها الفكرية والعلمية وقد تم انتقاء نماذج لبعض الشخصيات الفاعلة في هذا المجال وكان في مقدمتها الشيخ المفيد والشيخ الطوسي والعلامة الحلي .

المطلب الأول : الشيخ المفيد (ت : ٤١٣ هـ) وأثره في تأسيس الحركة الفكرية في عصر الغيبة الكبرى

يعدّ الشيخ المفيد من علماء الشيعة المؤسسين في المجال الفكري والمعرفي ، وهذا ما يدعونا للوقوف على أعتاب هذا الجبل الشامخ وأهم الإنجازات التي أسسها^(١٦) .

المطلب الثاني : الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت : ٤٦٠ هـ)

يعتبر الشيخ ابو جعفر محمد بن الحسن الملقب بـ (الطوسي) من أجل علماء الامامية على مدى تاريخها الطويل والحافل بكبار العلماء والفقهاء ، وتدلنا آثاره العلمية ومؤلفاته وتلامذته على علمية واسعة وثقافة موسوعية شاملة ، فلم يترك باباً من أبواب العلم إلا وطرقه وحاز فيه على قصب السبق ، فقد ألّف الطوسي في التفسير والحديث والفقه والأصول والعقائد وعلم الكلام والتراجم والسير والعبادات والفقه المقارن وغيرها^(١٧) . وقد امتاز بسعة الاطلاع في كل باب ألف فيه فكان ذا أفق واسع وعقلية متفتحة على آفاق العلم المتباينة ومصادره المتنوعة.

المطلب الثالث : أثر العلامة الحلي (ت : ٧٢٦ هـ) في تطوّر الحركة الفكرية

لم يعرف التاريخ مثيلاً للعلامة الحلي ، رجل أنعم الله عليه بالموهبة المتميزة والعبقرية الفذة ، فامتلك شجاعة كبيرة وذكاءً مفراطاً وعقلاً واعياً مدركاً ، وتفجرت في أعماقه طاقة هائلة من الفكر والمعرفة والعلوم ، واكبها عمل دائب وجهد مستمر...

موهبة لا تزال في قمته العلمية حتى الآن ، وشخصية لا تزال عبقريتها تسيطر على أجيال العلماء المتعاقبين بعده ، وكان لها التأثير الفعال على مفكري الإسلام قاطبة ، المعاصرين له والمتأخرين عنه ، فقد تلاقت فيه شخصيات علمية عديدة ، كل منها شامخة بارزة ، فكما كان من أعلام الفقه والشريعة ، يؤخذ قوله حجة ويعول عليه ، كذلك كان من ابرز مفكري عصره في الكلام والفلسفة ، عالم دفع قافلة المعرفة الإسلامية وشارك في بناء الحضارة وفي رفع صرحها عالياً ، رائد من رواد الحق وحامي من حماته ، ومدافع قوي عن مبدأ أهل البيت الذي تظاهرت عليه قوى الظلام وحاربت أتباعه ، بكل سلاح ، بالافتراءات والدعايات الكاذبة ، وبكل أنواع العذاب والتنكيل.. بالقتل والسجن والتشريد^(١٨) .

ثالثاً : دور علماء الشيعة في تطوير الحركة التجديدية في منهج البحث العلمي
ينطلق الشيعة في تبنيهم لمفهوم التجديد المنهجي على مجموعة من الاسس العقائدية التاريخية التي شكلت عنصراً رئيسياً في تميز المذهب الجعفري والذي يمثل مدرسة فقه وفكر الإسلام الأصيل المتمثل بالنبي الأكرم واله الأطهار (صلوات الله عليهم أجمعين) عن باقي المدارس الإسلامية ومذاهبها الأخرى ، وتتجلى أوضح المصاديق لذلك في فتح باب الاجتهاد لفقهاء المذهب للتعامل مع النصوص الفقهية الواردة في كتب مصادر أصول الحديث الأربعة المعتمدة لديهم .

ويحاول الباحث تسليط الضوء على الجانب التجديدي في منهج البحث العلمي المتبع عند فقهاء الشيعة العراقيين وأعلامهم ، وذلك من خلال اختيار بعض الشخصيات التي كان لها الدور الكبير في هذا المجال كالشيخ محمد رضا المظفر والسيد محمد تقي الحكيم والشيخ عبد الهادي الفضلي كنموذج تطبيقي وإلا فإن الفقهاء الذين أسهموا في هذا المجال أكثر من أن يُحصون في هذه العجالة .

المطلب الأول : الشيخ محمد رضا المظفر (ت : ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م) وحركته التجديدية من الفقهاء الذي كان لهم قصب السبق في المجال التجديدي على مستوى الفكر والمنهج والمعرفة هو الشيخ المجدد محمد رضا المظفر والذي أضفى شيء من الجدة على الحركة الفكرية والثقافية في الأوساط العلمانية^(١٩) ، إذ أدى ذلك إلى قفزة واضحة في المناهج الحوزوية والأكاديمية ، فقد استطاع التأثير في كلا المجالين .

المطلب الثاني : السيد محمد تقي الحكيم (ت : ١٤٢٣ هـ) والدراسات المقارنة من الشخصيات العلمية والتي كان لها دور كبير في الساحة المعرفية هو السيد محمد تقي الحكيم ، إذ استطاع أن يؤسس ويشيد العديد من المشاريع العلمية وكان في مقدمتها مسألة المقارنة بين المذاهب الإسلامية وآليات الاستنباط وغيرها من القضايا الهامة^(٢٠) ، ولأجل بيان ذلك ينبغي بداية معرفة شيء من شخصيته وحياته العلمية .

المطلب الثالث : الشيخ عبد الهادي الفضلي (ت : ١٤٣٤ هـ) وأثره في تجديد المناهج الدينية

الشيخ عبد الهادي الفضلي أحد أشهر علماء الإحساء المعاصرين له دور علمي بارز ، وهو بالإضافة إلى ذلك متنوع المعرفة ، فضلاً عن توفره على البعد التوفيقي بين الموروث المعرفي الذي يبدو في دراساته وأبحاثه ومساهماته في ما يعرف بـ (حوزة النجف الأشرف) ، وبين دراساته الأكاديمية والجامعية .

وإذا انتمى الشيخ الفضلي لمنطقة الإحساء تلك المنطقة الزاخرة بالعلماء والأدباء ، فإنه ينتمي - أيضاً - إلى مدرسة النجف الأشرف ، وهو ابن العراق ولادة ونشأة وقد نمته هذه المدرسة بما زخرت به من أعلام المعرفة ورواد العلم ، وتتلذذ على أشهر الفقهاء والعلماء من أمثال السيد محسن الحكيم والسيد أبي القاسم الخوئي والشهيد السيد محمد باقر الصدر .

رابعاً : الخاتمة ونتائج البحث

من الطبيعي أن يكون لكل بحث ودراسة مجموعة من النتائج التي توصل لها الباحث وأفرزتها معايير البحث العلمي الرصين والتي بالإمكان إجمالها بما يأتي:

١ - لعلماء العراق دور كبير في المحافظة على الحضارة العلمية الإسلامية على مر التاريخ الاجتهادي والذي يصعب فيه إختزال ذلك الكم المعرفي الكبير بعدد من الصفحات إلا إن طبيعة البحث تقتضي ذلك.

٢ - استطاع فقهاء الشيعة من تقديم العديد من الخدمات للإمة الإسلامية وحضارتها العلمية من خلال تغيير المناهج العلمية في مدرسة النجف وحوزتها وتأسيس العديد من المراكز البحثية التي لا زال العديد من العلماء يفتخر بذلك، وكان في مقدمتهم الشيخ المفيد والشيخ الطوسي والشيخ الحلي .

٤ - أستطاع فقهاء الشيعة من التأثير بصورة كبيرة في بلورة المناهج العلمية الرصينة، ولم يتأت ذلك ما لم تتظافر الجهود الكبيرة لفقهاءنا أمثال الشيخ المظفر والسيد محمد تقي الحكيم والشيخ عبد الهادي الفضلي .

خامساً : أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم خير ما نبتدئ به .

التعجب من أغلاط العامة في مسألة الإمامة ، محمد بن علي بن عثمان الكراجكي ، تح : فارس حسون ، الناشر : دار الغدير ، ط ١ ، ت : ط ١ ، ت : ١٤٢٤ هـ .

تقارير آية الله المجدد الشيرازي ، تقرير بحث المجدد الشيرازي للروزدري ، الناشر : مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث - قم المشرفة ، تح : مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث ، المطبعة : مهر - قم ، ط : ١ ، ت : ١٤٠٩ هـ .
تنقيح المقال في علم الرجال ، عبد الله المامقاني ، تح : محي الدين المامقاني ، طبع ونشر : مؤسسة آل البيت عليهم السلام ، ط ١ ، ت : ١٥٤٢٣ هـ .

الجهد الأصولي ، بلاسم عزيز شبيب ، الناشر : العتبة العلوية المقدسة ، ط ١ ، ت : ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م .

جهود الشيخ المفيد ومصادر استنباطه ، صاحب محمد حسين نصار ، طبع ونشر : مركز العلوم والثقافة - قم ، ط ٢ ، ت : ١٩٩٢ م .

- دور العلامة الحلي في تطوير الدراسات الفقهية المقارنة ، د . صاحب محمد حسين نصّار ، مقال منشور في مجلة الولاية العدد ٨٠ ت : ٢٠١٥ م – ١٤٣٤ هـ .
- الذريعة ، الطهراني ، طبع ونشر : مؤسسة آل البيت عليهم السلام ، ط ١ ، ت : ١٤٢١ هـ .
- روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه ، محمد تقي المجلسي ، المطبعة : العلمية – قم ، ط ١ ، ت : ١٣٩٨ هـ .
- سفينة البحار ومدينة الحكمة والأسفار ، عباس القمي ، طبع ونشر : مجمع البحوث الإسلامية – قم ، ط ١ ، ت : ١٤٢٧ هـ .
- شرائع الإسلام ، المحقق الحلي ، تح : عبد الحسين البقال ، دار زنكن – قم ، ط ٢ ، ت : ١٤٢٧ هـ .
- شعراء الغري (النجفيات) ، علي الخاقاني ، المطبعة الحيدرية – العراق ، ط ١ ، ت : ١٩٥٤ م .
- الشيخ محمد رضا المظفر ، الشيخ عبد النبي عبد المجيد النشاب ، بحث منشور في منشورات النشاب (قبسات من هنا وهناك رقم ٢٧٣) .
- الفهرست ، محمد بن الحسن الطوسي ، تح : محمد صادق بحر العلوم ، منشورات الشريف الرضي ، ط ٢ ، ت : ١٤٢٦ هـ .
- المحقق الحلي ، المطبعة : أمير المؤمنين – قم ، بلا ط ، ت : ١٣٦٤ ش .
- مدرسة النجف وتطور الحركة الإصلاحية فيها ، محمد مهدي الآصفي ، مطبعة النعمان – النجف الأشرف ، ط ١ ، ت : ١٩٦٣ م .
- معارج الأصول ، المحقق الحلي ، تح : محمد حسين الرضوي ، المطبعة : سيد الشهداء – قم ، ط ١ ، ت : ١٤٠٣ هـ .
- موسوعة العلامة الشيخ محمد رضا المظفر ، دار الكفيل للطباعة والنشر – كربلاء المقدسة ، ط ١ ، ت : ١٤٣٧ هـ – ٢٠١٦ م .

النجم الثاقب في أحوال الإمام الحجة الغائب ، الشيخ حسين الطبرسي النوري ، تقديم وترجمة وتحقيق وتعليق : السيد ياسين الموسوي ، الناشر : انتشارات لساق الصدق - قم المقدسة ، المطبعة : وفا ، ط : ١ ، ت : ٢٠٠٧ م - ١٣٨٦ ش

نظريات علم الكلام عند الشيخ المفيد ، مارتن مكدرموت ، تعريب : علي هاشم ، المراجعة : محمود البستاني ، الناشر : مجمع البحوث الإسلامية - مشهد ، ط : ١ ، ت : ١٤١٣ هـ - ١٣٧١ ش .

نظرية السنة في الفكر الإمامي الشيعي ، حيدر حب الله ، مؤسسة الانتشار العربي ، ط : ١ ، ت : ٢٠٠٦ م .

هكذا عرفتهم ، جعفر الخليلي ، المطبعة : شريعت - قم ، ط : ١ ، ت : ١٣٨٤ ش - ١٤٢٦ هـ .

الهوامش:

(١) ينظر : جهود الشيخ المفيد الفقهية ومصادر استنباطه ، صاحب محمد حسين نصّار ، بلاط ، بلاط : ٢٩ .

(٢) ينظر : تنقيح المقال في علم الرجال ، عبد الله المامقاني ، تح : محي الدين المامقاني ، طبع ونشر : مؤسسة آل البيت عليهم السلام ، ط : ١ ، ت : ١٥٤٢٣ هـ : ٣ / ١٣٧ .

(٣) ينظر : لسان الميزان ، ابن حجر العسقلاني ، الناشر : مكتب المطبوعات الإسلامية ، ط : ١ ، ت : ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م : ٥ / ٣٦٨ .

(٤) ينظر : التعجب من أغلاط العامة في مسألة الإمامة ، محمد بن علي بن عثمان الكراجكي ، تح : فارس حسون ، الناشر : دار الغدير ، ط : ١ ، ت : ١ ، ت : ١٤٢٤ هـ : ٣ .

(٥) ينظر : الفهرست ، محمد بن الحسن الطوسي ، تح : محمد صادق بحر العلوم ، منشورات الشريف الرضي ، ط : ٢ ، ت : ١٤٢٦ هـ : ١٨٦ - ١٨٧ .

(٦) ينظر : نظريات علم الكلام عند الشيخ المفيد ، مارتن مكدرموت ، تعريب : علي هاشم ، المراجعة : محمود البستاني ، الناشر : مجمع البحوث الإسلامية - مشهد ، ط : ١ ، ت : ١٤١٣ هـ - ١٣٧١ ش : ٤٩١ - ٤٩٣ .

(٧) ينظر : معجم البلدان ، ياقوت الحموي : ٤٩ - ٥٠ .

- (٨) ينظر: الشيخ الطوسي أبو جعفر محمد بن الحسن، حسن عيسى الحكيم، المطبعة: الآداب – النجف الأشرف، ط ١، ت: ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م: ١٤٥ – ١٤٩.
- (٩) ينظر: مجلة تراثنا، مؤسسة آل البيت / حياة الشيخ الطوسي، المطبعة: ستاره – قم، بلا ط، ت: ١٤١٨ هـ: ٣٩ / ٥٢.
- (١٠) من رسالة السيد الخوئي (قدس سره) إلى المؤتمر الألفي الذي عقد في مشهد المقدسة سنة ١٣٨٥ هـ، بمناسبة الذكرى الألفية لولادة الشيخ الطوسي (قدس سره)، والرسالة مطبوعة في بداية الجزء الثاني من أعمال المؤتمر.
- (١١) ينظر: دور العلامة الحلي في تطوير الدراسات الفقهية المقارنة، د. صاحب محمد حسين نصّار، مقال منشور في مجلة الولاية العدد ٨٠ ت: ٢٠١٥ م – ١٤٣٤ هـ.
- (١٢) ينظر: الجهد الأصولي، بلاسم عزيز شبيب، الناشر: العتبة العلوية المقدسة، ط ١، ت: ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١ م: ٢٩ وما بعدها.
- (١٣) سفينة البحار ومدينة الحكمة والأسفار، عباس القمي، طبع ونشر: مجمع البحوث الإسلامية – قم، ط ١، ت: ١٤٢٧ هـ: ٢ / ٢٧٣.
- (١٤) ينظر: روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه، محمد تقي المجلسي، المطبعة: العلمية – قم، ط ١، ت: ١٣٩٨ هـ: ٩ / ٣٠.
- (١٥) النور / ٦١.
- (١٦) ينظر: جهود الشيخ المفيد الفقهية ومصادر استنباطه، صاحب محمد حسين نصّار، بلا ط، بلا ت: ٢٩.
- (١٧) ينظر: الشيخ الطوسي أبو جعفر محمد بن الحسن، حسن عيسى الحكيم، المطبعة: الآداب – النجف الأشرف، ط ١، ت: ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م: ١٤٥ – ١٤٩.
- (١٨) ينظر: الجهد الأصولي، بلاسم عزيز شبيب، الناشر: العتبة العلوية المقدسة، ط ١، ت: ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١ م: ٢٩ وما بعدها.
- (١٩) ينظر: الشيخ محمد رضا المظفر، الشيخ عبد النبي عبد المجيد النشابة، بحث منشور في منشورات النشابة (قبسات من هنا وهناك رقم ٢٧٣).
- (٢٠) ينظر: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ابن رشد الحفيد، دار القلم – بيروت، ط ١، ت: ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١ م: ١ / ١٥٦.

أهم المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم خير ما نبتدئ به .
٢. التعجب من أغلاط العامة في مسألة الإمامة ، محمد بن علي بن عثمان الكراجكي ،
تح : فارس حسون ، الناشر : دار الغدير ، ط ١ ، ت : ط ١ ، ت : ١٤٢٤ هـ .
٣. تقارير آية الله المجدد الشيرازي ، تقرير بحث المجدد الشيرازي للروزدري ، الناشر :
مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث – قم المشرفة ، تح : مؤسسة آل
البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث ، المطبعة : مهر – قم ، ط : ١ ، ت : ١٤٠٩ هـ .
٤. تنقيح المقال في علم الرجال ، عبد الله المامقاني ، تح : محي الدين المامقاني ، طبع
ونشر : مؤسسة آل البيت عليهم السلام ، ط ١ ، ت : ١٥٤٢٣ هـ .
٥. الجهد الأصولي ، بلاسم عزيز شبيب ، الناشر : العتبة العلوية المقدسة ، ط ١ ، ت
: ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١ م .
٦. جهود الشيخ المفيد ومصادر استنباطه ، صاحب محمد حسين نصار ، طبع ونشر :
مركز العلوم والثقافة – قم ، ط ٢ ، ت : ١٩٩٢ م .
٧. دور العلامة الحلي في تطوير الدراسات الفقهية المقارنة ، د . صاحب محمد حسين
نصار ، مقال منشور في مجلة الولاية العدد ٨٠ ت : ٢٠١٥ م – ١٤٣٤ هـ .
٨. الذريعة ، الطهراني ، طبع ونشر : مؤسسة آل البيت عليهم السلام ، ط ١ ، ت :
١٤٢١ هـ .
٩. روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه ، محمد تقي المجلسي ، المطبعة : العلمية –
قم ، ط ١ ، ت : ١٣٩٨ هـ .
١٠. سفينة البحار ومدينة الحكمة والأسفار ، عباس القمي ، طبع ونشر : مجمع البحوث
الإسلامية – قم ، ط ١ ، ت : ١٤٢٧ هـ .
١١. شرائع الإسلام ، المحقق الحلي ، تح : عبد الحسين البقال ، دار زكن – قم ، ط
٢ ، ت : ١٤٢٧ هـ .

١٢. شعراء الغري (النجفيات) ، علي الخاقاني ، المطبعة الحيدرية - العراق ، ط ١ ، ت : ١٩٥٤ م .
١٣. الشيخ محمد رضا المظفر ، الشيخ عبد النبي عبد المجيد النشابة ، بحث منشور في منشورات النشابة (قبسات من هنا وهناك رقم ٢٧٣) .
١٤. الفهرست ، محمد بن الحسن الطوسي ، تح : محمد صادق بحر العلوم ، منشورات الشريف الرضي ، ط ٢ ، ت : ١٤٢٦ هـ .
١٥. المحقق الحلي ، المطبعة : أمير المؤمنين - قم ، بلا ط ، ت : ١٣٦٤ ش .
١٦. مدرسة النجف وتطور الحركة الإصلاحية فيها ، محمد مهدي الآصفي ، مطبعة النعمان - النجف الأشرف ، ط ١ ، ت : ١٩٦٣ م .
١٧. معارج الأصول ، المحقق الحلي ، تح : محمد حسين الرضوي ، المطبعة : سيد الشهداء - قم ، ط ١ ، ت : ١٤٠٣ هـ .
١٨. موسوعة العلامة الشيخ محمد رضا المظفر ، دار الكفيل للطباعة والنشر - كربلاء المقدسة ، ط ١ ، ت : ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م .
١٩. النجم الثاقب في أحوال الإمام الحجة الغائب ، الشيخ حسين الطبرسي النوري ، تقديم وترجمة وتحقيق وتعليق : السيد ياسين الموسوي ، الناشر : انتشارات لساق الصدق - قم المقدسة ، المطبعة : وفا ، ط ١ ، ت : ٢٠٠٧ م - ١٣٨٦ ش
٢٠. نظريات علم الكلام عند الشيخ المفيد ، مارتن مكدرموت ، تعريب : علي هاشم ، المراجعة : محمود البستاني ، الناشر : مجمع البحوث الإسلامية - مشهد ، ط ١ ، ت : ١٤١٣ هـ - ١٣٧١ ش .
٢١. نظرية السنة في الفكر الإمامي الشيعي ، حيدر حب الله ، مؤسسة الانتشار العربي ، ط ١ ، ت : ٢٠٠٦ م .
٢٢. هكذا عرفتهم ، جعفر الخليلي ، المطبعة : شريعت - قم ، ط ١ ، ت : ١٣٨٤ ش - ١٤٢٦ هـ .